مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد
الخامس عشر
1998

1428 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1998 أفرنجي

بلاغة الحذف والتّقديم في البسملة

الدكتور: علي أبو القاسم عون
جامعة الفاتح - كلّيّة اللّغات

قبل الشروع في استنباط الأغراض البلاغية من تعانق أسلوبي الحذف والتقديم والتأخير في البسملة نُعطي إلماحة موجزة عن كل من هذين الأسلوبين. فالحذف في أصله اللغوي هو الرمي، والقطع[1]، وفي الاصطلاح هو إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل[2]، أو إسقاط الشيء لفظاً ومعنًى[3]، وهو يختلف عن الإضمار؛ فالأخير هو إسقاط الشيء لفظاً لا معنى[4]، ففي قولك: أكتُب

(1) مجمل اللغة، والمعجم الوسيط: مادة (حذف).
(2) البرهان في علوم القرآن 3/ 102.
(3) الكلّيات 1: 216.
(4) المصدر نفسه.

بالقلم. أُضمر الفاعل وحُذف المفعول به. والحذف أحد سبيلي الإيجاز، لأن الإيجاز يكون بالحذف، ويكون بغير حذف، فالأول يسمى إيجاز حذف والثاني يسمى إيجاز قصر[5]، جاء في الخصائص: «قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلاَّ عن دليل عليه»[6].

وهو أربعة أقسام[7]:

الاقتطاع وهو حذف بعض حروف الكلمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ..﴾[8]، حيث حذفت همزة (أنا). ومنه حذف الألف في «بسم اللّه».

والاكتفاء وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيُكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة بلاغية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ..﴾[9] أي والبرد.

والاحتباك وهو أن يُحذف من الأول ما أُثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أُثبت نظيره في الأول؛ كما في قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[10] أي عملاً صالحاً بسيِّىء، وآخر سيّئاً بصالح. وهذا النوع سمّاه الزركشي (المقابلي)[11].

والاختزال وهو ما ليس واحداً مما سبق، ويكون بحذف اسم أو فعل أو حرف أو أكثر، والحذف الذي في البسملة والذي سنبحث في أغراضه يدخل ضمن هذا القسم.

أما التقديم والتأخير فلغةً هو نقل الشيء من مكانه إلى مكان مقدم عنه أو

---

(5) الإيضاح: 105 ـ 106.
(6) 2: 360.
(7) الإتقان في علوم القرآن 3/ 180 ـ 183.
(8) سورة الكهف، آية: 37.
(9) سورة النحل، آية: 81.
(10) سورة التوبة، آية: 103.
(11) البرهان في علوم القرآن 3/ 129.

مؤخر، واصطلاحاً «جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها لعارض اختصاص أو أهمية أو ضرورة»[12]. وقد قسمه عبد القاهر إلى قسمين: الأول تقديم على نية التأخير، والثاني تقديم لا على نية التأخير[13]، فإذا كان المقدم باقياً على حكمه قبل التقديم فهو من القسم الأول، ومن أمثلة تقديم المسند في قوله تعالى: ﴿. .وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[14]، ومن هذا القسم التقديم الذي في البسملة، والذي سنبحث في أغراضه مقترناً مع الحذف. وإذا زال المقدم عن حكمه، وصار له حكم آخر فهو من القسم الثاني، ومن أمثلته تقديم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾[15]. فالتقديم والتأخير عند عبد القاهر يطلق على ما يبقى في وظيفته النحوية بعد النقل وعلى ما ينحرف عن هذه الوظيفة، وسُمي الأول تقديماً معنوياً والثاني تقديماً لفظياً[16]، وقد أطلق الزمخشري مصطلح التقديم والتأخير على المُزال دون القار[17]، أي على ما تحقق فيه معنى النقل، فهو لا ينطبق عنده إلاَّ على القسم الأول. ومن تعريفات التقديم والتأخير أنه «تبادل في المواقع، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى، لتؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي»[18]، وهو تعريف نحوي بلاغي. فالتقديم والتأخير محور لانطلاق الكلمات والجمل يمنة ويسرة، فهو الأساس التكويني للتركيب.

ويمكننا تكثيف المصطلح تطبيقياً في «أن التقديم والتأخير تصرف في العبارة بالنقل بين مكوناتها لاعتبارات بلاغية»[19]. وعلمياً في «أنّه دراسة الحركة

---

(12) الإكسير في علم التفسير: 154.

(13) دلائل الإعجاز: 106.

(14) سورة البقرة، آية: 35.

(15) سورة الرعد، آية: 25.

(16) جامع العلوم (دستور العلماء) 1: 343.

(17) تفسير الكشاف 1: 661، والتبيان في علم المعاني والبيان: 116.

(18) بلاغة الكلمة والجملة والجمل: 138.

(19) بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم: 47.

الانتقالية للكلمة أو الجملة داخل العبارة لرصد أحكامها وكشف أسرارها»[20].

نقول بعد ذلك: إنّ في اقتران أسلوبي الحذف والتقديم والتأخير أهمية بلاغية تتجلى فيما ينتج عن اجتماعهما من البدائع واللطائف. ومصداقاً لما نزعم ننظر في البسملة من هذا الجانب لنستنبط ما فيها من أغراض بلاغية ناشئة عن اقتران الأسلوبين. ولكن قبل ذلك نشير إلى أنّ المحذوف المقدّر كالمذكور، والتقديم عليه كالتقديم على المذكور[21]، وإلى أنّ ابن هشام نبّه على أنّ القياس اتباع الأصل في تقدير موقع المحذوف لئلا يخالف الأصل من وجهين، الحذف ووضع الشيء في غير محله[22]. فإن كان الحذف يعد خروجاً عن الأصل في الذكرِ فإنّ فيه كثيراً من الأغراض البلاغية التي لا تتحقق لولا حدوثه، فـ«هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بياناً إذا لم تبن»[23]. وإن كان التقديم والتأخير يعد خروجاً عن الأصل في الترتيب فإنّه قد يحقق كثيراً من الأغراض البلاغية التي لا تكون لولا ذلك الخروج، فـ«هو باب كثير الفوائد جمُّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»[24].

لا خلاف في أن كلاً منهما انحراف عن الأصل، ولكن لا تنازع في وجودهما في كتاب الله، وفي الأساليب العربية الفصيحة، فهما من براهين شجاعة العربية[25]. ولا اعتراض على ما لهما من نصيب في البلاغة القرآنية، فلا بأس إذن من مخالفة الأصل الذي أشار إليه ابن هشام ما دامت المخالفة في نطاق

---

(20) المرجع نفسه.

(21) مختصر التفتزاني، شروح التلخيص 2: 148.

(22) مغني اللبيب: 799.

(23) دلائل الإعجاز: 146.

(24) المصدر نفسه: 106.

(25) الخصائص 2: 360.

الحرية المسموح بها لحركة التبادل الموقعي بين العناصر الكلامية، ولا بأس في المخالفة المزدوجة في اعتبار الحذف والتقديم والتأخير إذا لم يؤد ذلك إلى اضطراب في التأويل واختلال في التقدير وانحراف في الفهم، فالغرض الأساس هو استنباط الدلالات المقصودة في التعبير.

إنّ في اجتماع هذين الأسلوبين في لفظ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بداية كل فعل كثيراً من الأغراض البلاغية التي يمكن الكشف عنها تباعاً من خلال التحليل الأسلوبي، ففي تعلق الجار والمجرور رأيان: أحدهما كونه متعلقاً بفعل محذوف تقديره: أقرأ أو أكتب أو أرتحل، أو غير ذلك، فهو في موضع نصب، والآخر كونه موضع رفع، والتقدير ابتدائي ثابت أو مستقر بسم الله، والأول قول الكوفيين والثاني قول البصريين[26]، وفي معنى الباء وجهان: أحدهما الاستعانة والآخر المصاحبة[27]، وقد ربط صاحب «كاشف القناع والنقاب بإزالة الشبهة عن وجوه قواعد الإعراب» بين المعنى الأول وغرض الاختصاص، والمعنى الثاني وغرض التبرك، فلغرض الاختصاص تكون الباء للاستعانة، ولغرض التبرك تكون للمصاحبة[28]. وقدّر الزمخشري الفعل الذي تعلّق به المجرور متأخراً لأنّ الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله ـ عزّ وجل ـ بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[29]، حيث صُرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص[30]، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[31]، وقال ابن جزي: «ينبغي أن يقدر متأخّراً؛ لوجهين: أحدهما: إفادة الحصر والاختصاص، والآخر: تقديم اسم الله اعتناء، كما قدم في

(26) التبيان في إعراب القرآن 1: 3، الكشاف 1: 2، البحر المحيط 1: 127.
(27) الكشاف 1: 4.
(28) كاشف القناع والنقاب بإزالة الشبهة عن وجوه قواعد الإعراب: 4.
(29) سورة الفاتحة، آية: 4.
(30) الكشاف 1: 3.
(31) سورة هود، آية: 41.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾[32]. ويمكننا أن نقول: في الابتداء بالبسملة تتحقق أغراض الاهتمام والتبرّك والتعظيم والتخصيص، وفي حذف متعلق البسملة على أي تقدير له إيجاز للاقتصار على ذكر الاسم العظيم المتبرك به والمقصور عليه الاستعانة، وزيادة في الاهتمام به بتوجيه الأذهان إليه أكثر من المحذوف.

ومعنى الاهتمام بيّن لأنّ الجلالة يُهتم بها لشرف ذاتها[33]. فتُقدم لإظهار هذا الشرف.

ومعنى التخصيص والقصر على المقدم بيّن كذلك، فهو للردّ على المشركين في ابتدائهم بأسماء آلهتهم، والقصر هنا قصر إفراد؛ لأنّ المشركين المردود عليهم بالتخصيص لا يمتنعون من الابتداء بـ(اسم الله) فمنهم من يعترف بألوهيته، وأنّه أعظم الآلهة؛ فيكون الرد عليهم في اعتقادهم ذلك ببيان اختصاص الابتداء بـ(اسم الله) لا بغيره فقط ولا بغيره معه[34].

أما عن قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[35]، وما وجه تقديم الفعل فيه فقال الزمخشري: «هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم»[36]، وقال السكاكي: «فالوجه عندي أن يحمل اقرأ على معنى افعل القراءة وأوجدها... غير معد إلى مقروء به. وأن يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذي بعدها»[37]، فتقديم ذكر الفعل على التسمية في هذه الآية إمّا لأنّ الفعل أهم كما ذكر الزمخشري، وإما لأن المجرور غير متعلّق به وإنما هو متعلّق بما بعده كما ذكر السكاكي، وهذا يعني أن القول بالاختصاص المترتب على التقديم والتأخير في هذه الآية يرد على اعتبار السكاكي في التعلّق، فهي تؤكد إرادة الاختصاص في البسملة ولا تردها.

---

(32) التسهيل لابن جزي 1: 31.

(33) مواهب الفتاح، شروح التلخيص 2: 155.

(34) المصدر نفسه.

(35) سورة العلق، آية: 1.

(36) الكشاف 1: 3.

(37) المفتاح: 113.

وأشار السيد الشريف علي الجرجاني إلى أنه لو قدم اسم الله ـ تعالى ـ لفات الغرض الأصلي في طلب القراءة، فالقصد القراءة مفتتحة باسم ربك، أي قل: باسم الله، ثم اقرأ، فالفعل وإن قدم في هذه العبارة لكن طلب قراءة مصدرة باسم الله ـ تعالى ـ هو المقصود[38].

حقاً إنّ تخصيص اسم الله بالابتداء لا تعارضه هذه الآية. بل إنّ هذه الآية تأمر به، فالخالق ـ سبحانه ـ طلب من نبيه ـ ﷺ ـ الابتداء باسم الله إضافة إلى الأمر بالقراءة؛ فالقراءة مأمور بها، والابتداء بـ(بسم الله) مأمور به، فأنت إذا طلبت من شخص الابتداء باسم الله في عمل ما تقول له: افعل باسم الله، ولا تقول: باسم الله افعل إلاّ إذا كان يفعل ولكنه لا يبتدىء باسم الله، أما إذا قلت: افعل باسم الله فأنت تأمر بالفعل وبالابتداء بـ(اسم الله) فتجمع بذلك بين طلبين، وهذا ـ في اعتقادي ـ ما قصده القرآن الكريم، فالاختصاص وارد في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو يؤكد وجوب الابتداء بـ(اسم الله). وتُعلق البسملة بمحذوف يُقدر مؤخراً ليظهر غرض التخصيص، وقد روي عنه ـ ﷺ ـ قوله: **«كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم فهو أقطع»**[39].

ومعنى التبرك بيّن كذلك وهو في إضافة (اسم) إلى لفظ الجلالة، حيث تم به الفرق بين التيمن واليمين، وذلك لأنّ التيمن باسم الله لا بذاته[40]، وقد أظهر التقديم معنى التيمن وهو التبرك، وجعل الذهن متصلاً به، والنفس ناظرة بركته.

ومعنى التعظيم بيّن كذلك في ذكر اسمه الأعظم وتكرار وصفه بالرَّحمن الرَّحيم، فهذا الوصف إما لتعظيم الموصوف وإما للتأكيد[41]. والتقديم أظهر عظمته ـ سبحانه ـ ولفت النظر إليها.

ومعنى الإيجاز ظاهر في تخفيف النطق على اللسان بحذف ما تعلقت به البسملة، كما حُذف الألف تخفيفاً «لأنّ من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكثير

---

(38) حاشية السيد علي الشريف الجرجاني على الكشاف 1: 31.

(39) الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، بهامش الكشاف 1: 4.

(40) حاشية السيد علي الشريف الجرجاني على الكشاف 1: 32.

(41) البحر المحيط 1: 129.

إذا عرف معناه»[42]. وبالحذف تحقق توجيه الذهن والنفس إلى المذكور تيمّناً وتبركاً وتعظيماً وتخصيصاً.

تلك هي الأغراض البلاغية المستنبطة من الابتداء بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهي مقاصد بيّنة الوضوح ودلالات ظاهرة الوجود، وإن لم نخض في أمر التقدير والتأويل كثيراً؛ لأنه يكفي لتواردها ذكر البسملة، وتعلّق الأذهان والنفوس بها، وأما التقدير والتأويل في هذا الموضع فشيء دعا إليه الإعراب فتأثر به البحث في المعنى، والمعنى ـ في اعتقادي ـ لم يتأثّر، فهو متحقق بما ذكر، وليس وراء الحذف إلاّ التخفيف والإيجاز لكثرة الاستعمال، وتقوية ظهور الأغراض المشار إليها بجعل الأذهان موجهة إلى المذكور دون المحذوف.

وبذلك يكون قد كشف النقاب عن شيء من بلاغة الحذف والتقديم في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بلاغة ما كانت لولا المخالفة لأصلين لغويين هما الذكر والترتيب.

المصادر والمراجع

1 ـ مصحف الجماهيرية، برواية قالون. ط: 1986م، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس.

2 ـ الإتقان في علوم القرآن، لجلال لدين السيوطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط3: 1405هـ ـ 1985م، دار التراث، القاهرة.

3 ـ الإكسير في علم التفسير، للفقيه العالم الطوفي سليمان بن عبد الكريم الصرصري البغدادي، حقّقه دكتور عبد القادر حسين، ط: 1977م، مكتبة الآداب، القاهرة.

4 ـ الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع (مختصر تلخيص المفتاح)

(42) معاني القرآن للفرّاء 1: 2.

تأليف الخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت، (د ـ ت).
5 ـ البحر المحيط لمحمّد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط: 1413هـ ـ 1993م، دار الكتاب العلمية، بيروت.
6 ـ البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمّد بن عبد اللّه الزركشي، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم، ط: 1980م، دار الفكر.
7 ـ بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دكتور علي أبو القاسم عون، أطروحة دكتوراه، مرقونة، 1997م، كلية الآداب، جامعةمحمّد الخامس. الرباط.
8 ـ بلاغة الكلمة والجملة والجمل. د. منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، (د ـ ت).
9 ـ التبيان في إعراب القرآن، تأليف أبي البقاء عبد اللّه بن الحسين العكبري، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار الشام للتراث، بيروت، (د ـ ت).
10 ـ التبيان في علم المعاني والبديع والبيان للعلامة شرف الدين بن محمّد الطيبي، تحقيق الدكتور هادي عطية مطر الهلالي، ط: 1987م، عالم الكتب، مكتبة النهضة، بيروت.
11 ـ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمّد بن أحمد بن جزي الكلبي، ط: 1355هـ، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.
12 ـ جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، الملقب دستور العلماء، تأليف القاضي عبد النبي عبد الرّسول الأحمدي نكري، ط: 2، 1395هـ ـ 1975م، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
13 ـ حاشية علي بن محمّد علي الجرجاني على الكشاف، ط: طهران، (د ـ ت).
14 ـ الخصائص، صنعة أبي الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمّد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، (د ـ ت).
15 ـ كتاب دلائل الإعجاز، تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمّد الجرجاني النحوي، تعليق محمّد محمود شاكر، ط: 2، 1989م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
16 ـ كاشف القناع والنقاب بإزالة الشبهة عن وجوه قواعد الإعراب، تأليف

محمّد بن عبد الكريم الكافي، مخطوط رقم 1313/د، الخزانة العامة، الرباط.

17 ـ الكافي الشّافي في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني، بذيل الكشاف، ط: 3، 1407هـ، 1987م، دار الكتاب العربي، بيروت.

18 ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري، ترتيب وتصحيح مصطفى حسن أَحمد، ط: 3، 1987م، دار الكتاب العربي، بيروت.

19 ـ الكليات، معجم المصطلحات والفروق اللغوية، لأَبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي، تحقيق عدنان درويش، ومحمّد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، (د ـ ت).

20 ـ مجمل اللغة لأَبي الحسين أَحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة.

21 ـ مختصر سعد الدين التفتزاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ـ ت).

22 ـ معاني القرآن، لأَبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ط: 3، 1403هـ، 1982م، عالم الكتب، بيروت.

23 ـ المعجم الوسيط، ط: 3، مجمع اللغة العربية، (د ـ ت).

24 ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق الدكتور مازن المبارك وآخرين، ط: 6، 1985م، دار الفكر، بيروت.

25 ـ مفتاح العلوم، تأليف أَبي يعقوب يوسف بن أَبي بكر محمّد بن السكاكي، منشورات المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، (د ـ ت).

26 ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ـ ت).